هذا هو تراثنا

أ . د . عبدالستار الحلوجي*

يواجه الإسلام والمسلمون في هذه الأيام حملة ظالمة تقرن الإسلام بالإرهاب وتشعل نار الفتنة بين المسلمين . وأعداء الإسلام يعلمون جيدا أن أي مواجهة صريحة بينهم وبينه ستكون الغلبة فيها لدين الله ، لأنه يملك من مقومات البقاء والصمود ما يجعله يقنع العقول ويأسر القلوب ، وينتشر - حتى في ديارهم - بلا معجزات تبهر البصر ، وبلا ضغوط تقهر البشر ، وإنما بما يمثله من قيم ومباديء تجعله صالحا لكل زمان ومكان ، وقادرًا على التصدي لكل محاولات التشكيك والتضليل ، ولهذا يلجأون إلى ترويج الأباطيل عن هذا الدين الحنيف ، وإلى بث الفرقة بين أتباعه ، واستعداء بعضهم على بعض ، لاستنفاد قوتهم والسيطرة على مقدراتهم . وما حدث في البوسنة وأفغانستان وكشمير بالأمس القريب من تدمير وإهلاك للحرث والنسل ، وما تتعرض له المنطقة العربية في هذه الأيام من ضغوط واستفزازات وادعاءات باطلة ، وما يتجمع في سماواتها من سحب تنذر بالويل والثبور ، ما هي إلامظاهر وأعراض لما يراد لهذه الأمة من مكر ، وما يدبر لها من كيد ، وما يحاك لها من مؤامرات .

وهذه الحملة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، فالصراع بين الحق والباطل صراع أبدي ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، وما نشهده اليوم من هجوم على الإسلام لا ينبغي أن يخيفنا أو يصيبنا بالفزع أو الجزع ، لأنه يعني أن الغرب والشرق معًا يستشعرون الخطر من هذا الدين الذي ينتشر ولا ينحسر ، والذي تتفتح له العقول وتطمئن به القلوب وتتهاوى أمامه جميع السدود .

في هذا الوقت الذي يُمتحن فيه الإسلام والمسلمون ، لابد لنا من وقفة مع النفس ، نبحث في أعماقنا عن هويتنا ، ونجمع الخيوط المتفرقة التي تنسج شخصيتنا الإسلامية ، فنحن مطالبون اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، بأن نكتشف أنفسنا ، وأن نتعرف على جوهر ديننا ، لأن هذا الدين هو طوق النجاة لنا في هذا الخضم الهائل الذي تتدافع فيه أمواج الباطل من كل مكان . وما ورثناه من تراث إسلامي هو الوقود الذى تستمر به . جذوة الحياة متوقدة في نفوسنا ، ويوم نبتعد عن ديننا أو نتنكر لتراثنا ، تنماع شخصيتنا ونفقد كل مقومات البقاء .

---

(١) أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

تلك مقدمة أراها ضرورية بين يدي الحديث عن التراث الإسلامي .

وقبل أن نبدأ رحلتنا مع هذا التراث ، أحب أن نتفق على تعريف واضح له حتى لاتهتز الأرض من تحت أقدامنا في أي مرحلة من مراحل الطريق . ذلك أن كل لفظ من الألفاظ له دلالة لغوية توضحها معاجم اللغة ، ولكن بعض الألفاظ يحمّل دلالة اصطلاحية عند أهل الاختصاص . فالحديث ـ مثلا ـ هو الكلام ، أمّا عند المتخصصين في العلوم الشرعية فهو كلام النبي ﷺ خاصةً ، والفقة في اللغة هو الفهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾[1] أما في الاصطلاح فهو فهم أحكام الدين خاصة .

والتراث والميراث في اللغة شيء واحد ، وهما مشتقان من الإرث ، وهو ما يخلِّفه الآباء للأبناء من متاع مادي وقيم معنوية . ولكن أهل الاختصاص يحاولون التفرقة بين اللفظين فيطلقون الميراث (وجمعها مواريث) على الأشياء المادية كالمال والعقار ، ويخصون التراث بالأشياء المعنوية كالمؤلفات والأفكار التى يخلِّفها لنا السابقون ، والعادات والتقاليد التي يغرسها الآباء في نفوس الأبناء ، مع أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ التراث للدلالة على الماديات في قوله تعالى : ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾[2] ، وفي حديثنا هذا سنستخدم اللفظ بالمعنى الاصطلاحي لا بالمعنى اللغوي ، وأقصد به ما خلَّفه لنا أسلافنا من مؤلفات ، وما أرسوه فينا من قيم ومبادئ ، وما وضعوه لنا من ضوابط للسلوك .

وإذا كان هذا هو فهمنا لمدلول كلمة «التراث» ، فماذا نقصد بالتراث الإسلامي؟ هل نعني به كتابات القدماء عن الإسلام؟ أم كتابات المسلمين في شتى فروع المعرفة؟

إن النظرة الضيقة هي التي تقصر دلالة اللفظ على ما خلّفه لنا أسلافنا من مؤلفات في العلوم الإسلامية كالتفسير والحديث والفقه والتوحيد وغيرها من العلوم الشرعية ، وهي نظرة قد يبررها أن المسلمين السابقين هم أفضل مَنْ كَتب عن الإسلام ، وأن كتاباتهم هي المصدر الأساسي الذى اعتمد عليه واستقى منه كل من أتى بعدهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولكنها ـ كما قلتُ ـ نظرة ضيقة ، لأن كلمة (الإسلامي) هنا صفة للتراث وليست موضوعًا له ، صحيح أن العلوم الإسلامية مجال من مجالات التراث الإسلامي ، بل إنها عموده الفقري بلا منازع ، ولكن دلالة اللفظ تتسع لتشمل كل ما خلَّفه لنا علماء

(١) سورة هود (١١) ، آية ٩١ .
(٢) سورة الفجر (٨٩) ، آية ١٩ .

المسلمين عبر العصور من مؤلفات في مختلف فروع المعرفة ، وبشتى اللغات ، وفي كل بقعة من بقاع الأرض بلغتها دعوة الإسلام .

فمن حيث الموضوع تدخل مؤلفات جابر بن حيان الكيميائية ، ومؤلفات الخوارزمي الرياضية ومؤلفات الرازي وابن سينا الطبية ، ومؤلفات ابن يونس المصري ونصير الدين الطوسي الفلكية ، ومؤلفات الإدريسي والمقدسي الجغرافية ، تدخل هذه المؤلفات وكثير غيرها تحت مظلة التراث الإسلامي ، ومن حيث اللغة تُعَدّ مؤلفات الفردوسي وعمر الخيام وجلال الدين الرومي تراثا إسلاميا وإن كُتبت باللغة الفارسية ، وتُعد كتابات ابن كمال باشا وآشق باشا وفضولي تراثا إسلاميا وإن كُتبت باللغة التركية . ومن حيث المكان تمثل مؤلفات المسلمين في الأندلس وفارس وأفريقيا ، بل وفي الجمهوريات السوفيتية لبنات متألّقة في صرح التراث الإسلامي .

وثمة ملاحظة يجدر بنا أن نسجلها هنا بلا حساسية ، وهي أن معظم مفردات هذا التراث كُتب باللغة العربية ، لا لأن مؤلفيها كانوا عربا ، وإنما لأن اللغة العربية رافقت الإسلام في انتشاره وابتلعت اللغات المحلية التي كان يتكلمها ويكتب بها أبناء تلك البلاد من الفرس والترك والأسبان والأفارقة والمصريين ، لأنها لغة القرآن ، ولغة العبادة للمسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم ، فالمسيحي الإنجليزي يصلي بالإنجليزية ، والفرنسي يصلي بالفرنسية ، والصيني يصلي بالصينية ، أمَّا المسلم فلا تصح صلاته بغير اللغة العربية ، وذلك شرف لهذه اللغة قبل أن يكون شرفا للعرب ، لأن الإسلام لم يميز العرب على غيرهم بدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١] وقول النبي ﷺ في خطابه الشهير في حجة الوداع : «إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٢] .

ولعل مما يلفت الانتباه ويثير العجب أن أعظم علماء النحو العربي هو سيبويه الفارسي ، وأن المحدثين الأربعة الكبار (البخاري ومسلم والنسائي والترمذي) خرجوا من المنطقة التي تعرف الآن بالجمهوريات السوفيتية ، وأن أعظم شعراء العصر العباسي كابن الرومي وأبي العتاهية وأبي تمام وأبي نواس كانوا من أصول غير عربية ، ولكنهم جميعا كانوا تحت الراية

(١) سورة الحجرات (٣٩) ، آية ١٣ .

(٢) جمهرة خطب العرب ، جمع أحمد زكي صفوت . القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٩٣ ، جـ١ ص ٥٩ .

عربًا ، لأن إلههم واحد ، ودينهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، ولغتهم واحدة ، وثقافتهم واحدة .

هذا التراث الإسلامي بالمفهوم الذي قدمّناه ، والذي دخلت في نسيجه خيوط عربية وفارسية وتركية ويونانية هو الذي شكّل وجدان هذه الأمة ، فالإمام البخاري ـ مثلاً ـ هو شيخ المحدِّثين بلا منازع ، وكتابه «الجامع الصحيح» هو أوثق مصادر الحديث باتفاق أهل العلم ، ولا يوجد مسلم على وجه الأرض لم يسمع عن البخاري . ولكن مَنْ منَّا يسأل نفسه عن جنسيته أو يعرف أنه من أوزبكستان ؟ ومَنْ من المسلمين يفرق بين عالم أوزبكي أو طاجكي وبين عالم مكّي أو مدني ؟

ولم يكن البخاري نموذجا فريدا ، فالطبري والخوارزمي وابن سينا والفارابي والبيروني كانوا من آسيا الوسطى ، وكانوا يرحلون في طلب العلم شرقا وغربا ، لا يفرِّقون بين عالم شامي أو مغربي أو يمني .

لقد انصهر الجميع في بوتقة الإسلام ، وأصبح كل منهم يمثل بالنسبة لنا قيمة من القيم التي نعتزّ بها ، ويشكِّل خيطا متألقا في نسيج الحضارة الإسلامية التي ازدهرت عدة قرون ، وأخرجت البشرية من ظلمات العصور الوسطى إلى مشارف عصر النهضة ، ولذا ننظر فنرى أوروبا تقيم في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد مدارس لتعليم اللغة العربية في إسبانيا[1] وصقلية ، تترجم تراث المسلمين من العربية (لغة الحضارة في ذلك الزمان) إلى اللاتينية ، بل إنها ترجمت تراث اليونان إلى اللاتينية عن طريق ما وجدته من ترجمات عربية لهذا التراث ، ولم تُعرف الأصول اليونانية لمؤلفات أرسطو وأفلاطون إلا بعد ثلاثة قرون حين سقطت القسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد .

ودعونا نتفق بعد ذلك على أن هذا التراث بُني على دعامتين أساسيتين هما الأقوال والأفعال . ويأتي على رأس الأقوال المصدران الأساسيان من مصادر التشريع الإسلامي ، وأعني بهما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والقرآن الكريم نصّ ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[2] ، ولعله الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يتعرض لتحريف أو تبديل ، فقد حرص النبي ﷺ على حفظه وتدوينه حرصا شديدا ،

(١) فقد أسس ريموند أسقف طليطلة من ١١٢٦ - ١١٥١ مدرسة للترجمة .
(٢) سورة فصلت (٤١) ، آية ٤٢ .

وكان الصحابة يحفظونه ويكتبون لأنفسهم ، ولكنه لم يُجمع في كتاب إلا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استحرّ القتل بالقُراء يوم اليمامة سنة ١٢هـ فاقترح عليه الفاروق عمر أن يقوم بجمع القرآن خوفا من مقتل حملته وحافظيه ، فاستدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي لرسول الله ﷺ وكلّفه بجمع القرآن[١] في صحف ظلّت عنده حتى لقي ربه ، فانتقلت إلى خليفته عمر ، وبعد مقتل عمر آلت الصحف إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر . ولما ظهرت بوادر الخلاف بين المسلمين في قراءة القرآن إبّان فتح أرمينية وآذربيجان في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، طلب الصحف التي عند حفصة أم المؤمنين ، واستدعى زيد بن ثابت وثلاثة من القرشيين هم عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم بأن يجمعوا الناس على مصحف واحد كُتبت منه عدة نُسَخ أُبقيت واحدة منها في المدينة المنورة وأرسلت الأخرى إلى الأمصار[٢] . ومازال مصحف سيدنا عثمان هو المصحف الجامع الذي لم يشذّ عنه أحد من المسلمين عبر العصور .

أما النص الثاني فهو الحديث النبوي الشريف ، وقد ظل يروى شفاهة حتى أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بتدوينه سنة ١٠٠هـ ، والسبب في ذلك أن النبي ﷺ كان قد نهى عن أن يكتب المسلمون عنه شيئا غير القرآن ، لأن القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله بعد ، ولأنه ﷺ كان يخشى أن يخلط المسلمون بين كلامه وكلام الله سبحانه وتعالى ، خاصة في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسلامية[٣] .

وكان طبيعيا أن يحدث خلال تلك الفترة الطويلة نسيان أو تزيّد في الحديث النبوي ، وأن ينسب بعض ضعاف النفوس إلى النبي ﷺ ما لم يقله ، وقد تصدى علماء المسلمين لهذه الظاهرة منذ وقت مبكر ، فوضعوا علم (مصطلح الحديث)[٤] الذي يحدد ضوابط دقيقة لقبول نصوص الأحاديث ، وأرسوا قواعد محكمة لدراسة السند أو سلسلة الرواة ، وظهرت كتب كثيرة تعرف بكتب الجرح والتعديل ، أي تجريح الرجال وتعديلهم ، وقد تكفل هذان العلمان بتنقية أحاديث النبي ﷺ من الضعيف والمشكوك فيه . ويعد «صحيح البخاري»

(١) صحيح البخاري ، الرياض : مطبعة دار السلام ، ١٩٩٩ ، ص ٨٩٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، القاهرة : مطبعة الشيخ عثمان عبدالرازق ، ١٣٠٦هـ ، جـ ١ ص ٦٣ .

(٣) انظر : تقييد العلم ، للخطيب البغدادي ، تحقيق يوسف العش ، دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ .

(٤) ويسمى أيضًا : علم أصول الحديث ، وعلم دراية الحديث .

نموذجا رائعا لتحري أقصى درجات الدقة في قبول الحديث . ولهذا وُصف ـ بحق ـ بأنه أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى .

وبعد هذين النصّين يأتي في مرتبة تالية كل المؤلفات التراثية في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ، وقد تأثر كثير منها بطريقة المحدّثين في توثيق نصوص الأحاديث ، فكانت الأقوال والأخبار تروى مسبوقة بسلسلة طويلة من الأسانيد تقابل ما نسميه اليوم بالإشارات المرجعية Citation .

أما الأفعال فأعني بها أفعال النبي ﷺ وصحابته ، ومعروف أن السُّنة النبوية المطهرة أقوال وأفعال وإقرار ، فالأقوال يمثلها الحديث الشريف ، والأفعال توضحها السيرة النبوية ، والإقرار (أي أن يرى النبي ﷺ صحابيا يتصرف تصرفًا ما فيقرّه عليه) موزع بين كتب الحديث وكتب السيرة .

ولا أظنني بحاجة إلى التأكيد على أن النبي ﷺ هو إمامنا وقدوتنا بنص القرآن الكريم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[١] وأقواله وأفعاله نبراس لنا ، نسترشد بها ونسير على هديها . ولم يكن النبي ﷺ مجرد مبلِّغ عن ربه ، ولم يكن مجرد شارح للقرآن الكريم أو مفسر لبعض نصوصه ، وإنما كان مشرِّعا أيضًا ، فالصلاة ـ وهي عماد الدين ـ لم يحدد القرآن الكريم مواقيتها ، ولم يفصل هيئاتها وعدد ركعات كل فرض من فروضها ، وإنما تكفل بذلك النبي ﷺ فقال : «**صلّوا كما رأيتموني أصلي**»[٢] . وبعض الحدود (وهي بمثابة القانون الجنائي الإسلامي) مثل حدّ الرجم لم يرد في القرآن وإنما طبّقه النبي ﷺ .

وأنا أقول ذلك ردًا على الذين يشككون في الحديث ويقولون : نكتفي بالقرآن ، مع أن القرآن يصف الرسول الكريم بقوله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٣] ، ويقرن طاعة الله بطاعة رسوله حيث يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٤] ، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٥] ، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

(١) سورة الأحزاب (٣٣) ، آية ٢١ .
(٢) صحيح البخاري ، ص ١٠٤ .
(٣) سورة النجم (٥٣) آية ٣ - ٤ .
(٤) سورة النساء(٤) ، آية ٥٩ ، وسورة محمد (٤٧) ، آية ٣٣ .
(٥) سورة آل عمران ، (٣) آية ١٣٢ .

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(١) ، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٢) .

وإذن فأفعال النبي ﷺ وأفعال صحابته الأكرمين الذين تتلمذوا عليه ونهلوا من معينه جزء متمم لما وصلنا عنهم من أقوال . وهذه تلك «الأقوال والأفعال» تؤكد عظمة الإسلام وسماحته وتدعونا للفخر به والاعتزاز بالانتساب إليه . وهي في الوقت نفسه وشائج قربى تجمع الأمة وتوحد فكرها وتنظم العلاقة السوية بينها وبين غيرها من الأمم .

لقد اتُّهم الإسلام قديما بأنه انتشر بحدّ السيف ، ويُتهم حديثا بأنه دين عنف وقهر وإرهاب ، مع أن قرآننا ينص صراحة على حرية العقيدة ، وعلى أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٣) ، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(٤) ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٥) . بل إنه يطالب الإبن المسلم الذي يحضه أبوان مشركان على الكفر ، يطالبه بأن يبرّهما ويحسن إليهما ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(٦) .

والقرآن الكريم يأمر النبي ﷺ بأن يبلغ رسالة الله إلى البشر ، ويرسم له إطارا لا يتعداه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٧) ، ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٨) .

وبرغم هذه الآيات الصريحة في الدعوة إلى الإسلام باللين والحسنى ، وفي مجادلة أصحاب الديانات السماوية الأخرى «بالتي هي أحسن» ، برغم ذلك يُتهم الإسلام بأنه يبيح سفك الدماء . وهي تهمة تدحضها آيات كثيرة منها قول الحق سبحانه : ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

(١) سورة آل عمران (٣) ، آية ٣١ - ٣٢ .
(٢) سورة النساء (٤) ، آية ٦٥ .
(٣) سورة البقرة (٢) ، آية ٢٥٦ .
(٤) سورة الكافرون (١٠٩) ، آية ٦ .
(٥) سورة الكهف (١٨) ، آية ٢٩ .
(٦) سورة لقمان (٣١) ، آية ١٥ .
(٧) سورة النحل (١٦) ، آية ١٢٥ .
(٨) سورة العنكبوت (٢٩) ، آية ٤٦ .

ربُّكُمْ عليْكُمْ ألاَّ تُشْركُوا به شيْئًا وبالْوالديْن إحْسانًا ولا تقْتُلُوا أوْلادكُم منْ إملاقٍ نَّحنُ نرزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ ولا تقْربُوا الْفواحشَ ما ظهرَ منْها وما بطنَ ولا تقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحقّ ذلكُمْ وصَّاكُم به لعلَّكُمْ تعْقلُونَ﴾[1] ، ﴿ولا تقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحقّ ومَن قُتلَ مظْلُومًا فقدْ جعلْنا لوليّه سُلْطانًا فلا يُسْرف فّي الْقتْل إنَّهُ كانَ منصُورًا﴾[2] ، ﴿ومن يقْتُلْ مُؤْمنًا متَعمّدًا فجزاؤُهُ جهنَّمُ خالدًا فيها وغضبَ اللَّهُ عليْه ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذابًا عظيمًا﴾[3] . ﴿وعبادُ الرَّحْمن الَّذين يمْشُونَ على الأرْض هوْنًا وإذا خاطبَهُمُ الْجاهلُونَ قالُوا سلامًا * والَّذين يبيتُونَ لربّهمْ سُجَّدًا وقيامًا * والَّذين يقُولُونَ ربَّنا اصْرفْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غرامًا * إنَّها ساءتْ مُسْتقرًّا ومُقامًا * والَّذين إذا أنفقُوا لمْ يُسْرفُوا ولمْ يقْتُرُوا وكانَ بيْنَ ذلكَ قوامًا * والَّذين لا يدْعُونَ معَ اللَّه إلهًا آخرَ ولا يقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحقّ ولا يزْنُونَ ومَن يفْعلْ ذلكَ يلْقَ أثامًا * يُضاعفْ لهُ الْعذابُ يوْمَ الْقيامة ويخْلُدْ فيه مُهانًا﴾[4] .

بل إن الإسلام لم يفرض الجهاد إلا لردِّ العدوان وكفالة حرية العقيدة . فالحرب فيه لاتكون إلا دفاعا عن النفس أو اتقاءً لهجوم متوقع ، والمسلم مطالب «بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة . . وكل تحريض أمر به ولي الأمر في القرآن ، فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها إلا أن يكفّ بأس المعتدين»[5] .

﴿فقاتلْ في سبيل اللَّه لا تُكلَّفُ إلاَّ نفْسكَ وحرّض الْمُؤْمنين عسَى اللَّهُ أنْ يكُفَّ بأْسَ الَّذينَ كفرُوا واللَّهُ أشدُّ بأْسًا وأشدُّ تنكيلاً﴾[6] ، ﴿وقاتلُوا في سبيل اللَّه الَّذين يُقاتلُونكُمْ ولا تعْتدُوا إنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الْمُعْتدينَ﴾[7] ﴿فمَن اعْتدَى عليْكُمْ فاعْتدُوا عليْه بمثْل ما اعْتدَى عليْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ واعْلمُوا أنَّ اللَّهَ معَ الْمُتَّقينَ﴾[8] ، ﴿وإنْ عاقبْتُمْ فعاقبُوا بمثْل ما عُوقبْتُم به ولَئن صبرْتُمْ لهُوَ خيْرٌ للصَّابرينَ﴾[9]

(١) سورة الأنعام (٦) ، آية ١٥١ .
(٢) سورة الإسراء (١٧) ، آية ٣٣ .
(٣) سورة النساء (٤) ، آية ٩٣ .
(٤) سورة الفرقان (٢٥) ، الآيات ٦٣ - ٦٩ .
(٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، لعباس العقاد ، القاهرة : المؤتمر الإسلامي ، ١٩٥٧ ، ص ٢٣٥ .
(٦) سورة النساء (٤) ، آية ٨٤ .
(٧) سورة البقرة (٢) ، آية ١٩٠ .
(٨) سورة البقرة (٢) ، آية ١٩٤ .
(٩) سورة النحل (١٦) ، آية ١٢٦ .

ويمضي القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيفتح الباب على مصراعيه لإقامة علاقات مودة مع غير المسلمين طالما لم يبدأوهم بالعدوان ولم يخرجوهم من ديارهم ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[١] .

ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة ، فقد أخرجه أهل مكة وأخرجوا أصحابه وعذَّبوهم ، فماذا فعل بهم حين دخلها فاتحًا منتصرًا ، بعد أن خرج منها مطاردًا متخفيا؟ لم يعتقل أهلها ، ولم ينكِّل بهم ، ولم ينتقم منهم ، وإنما قال قولته الشهيرة : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

ولم تعرف الدنيا عبر تاريخها كله نظامًا للحكم أعدل من نظام الإسلام ، ولا ديموقراطية كديموقراطية الإسلام . ولو أردنا أن نسوق الأدلة على ذلك لاحتجنا إلى صفحات وصفحات . ويكفي أن نذكر هنا قطرة من بحر هذه الديموقراطية . فقد ألغى الإسلام العصبيات ، ونبذ التفرقة العنصرية ، فاستوى تحت لوائه علي بن أبي طالب القرشي مع بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي . بل إننا لنرى الصحابة يتسابقون في الاحتفاء بسلمان ، فيقول المهاجرون : سلمان منَّا ، ويقول الأنصار : سلمان منَّا ، ويرد النبي ﷺ قائلا : سلمان منَّا أهل البيت[٢] . وكان عمر إذا رأى بلالا يقول : بلال سيدنا وأعتقه سيدنا (يعني أبا بكر) .

وفي حجة الوداع ، يعلن النبي ﷺ ، في خطبته الشهيرة أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان حيث يقول : «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى مَن ائتمنه عليها . إن المسلمين إخوة فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم»[٣] .

وفي مدرسة النبوة تخرَّج عمالقة من أمثال أبي بكر الصديق الذي خطب الناس حين ولي الخلافة قائلا : «أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم . . . إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوِّموني»[٤] .

---

(١) سورة الممتحنة (٦٠) ، آية ٨ ، ٩ .

(٢) الطبقات الكبرى ، لابن سعد . بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ ، مج٤ ، ص٨٣ .

(٣) سيرة ابن هشام . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة : مطبعة صبيح ، ١٩٧١ ، ص١٠٢٢- ١٠٢٣ .

(٤) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، مج٣ ، ص١٨٢- ١٨٣ .

ويتولى بعده عمر فيسأل الناس يومًا أن يدلُّوه على عوَجه فيقول له أحدهم : «والله لو علمنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا» فيحمد الله أن جعل في المسلمين مَنْ يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه[١] . ويقول له رجل : اتق الله يا أمير المؤمنين . فينهض رجل من القوم ويقول له : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لي : نِعْمَ ما قال . ثم قال عمر : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[٢] .

وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهده ، ومع هذا كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ[٣] ، ويداوي بنفسه إبل الصدقة . ويفد عليه رسول كسرى فيجده نائمًا على الأرض في ظل شجرة ، فيقول قولته المشهورة : عدلت فأمنت فنمت يا عمر .

يخرج عمر ذات مساء مع أحد أصحابه لتفقد أحوال الرعية فيجد امرأة وضعت قدرًا على النار وأطفالها حولها يتصايحون ، فيسألها عن سبب صياحهم فتقول له : الجوع . فيسألها عمَّا في القدر فتقول : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . فيقول لها : وما يدري عمر بكم؟ فتقول له : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فينطلق مع صاحبه «أسلم» إلى بيت المال ويخرج لها دقيقا وزيتا ، ويقول لأسلم : احمله عليَّ فيرد عليه : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين . فيقول عمر : أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ لا أم لك .

ويحمل أمير المؤمنين الدقيق ويمضي به حتى يبلغ المرأة وصبيتها ، ويساعدها في طهي الطعام ، وينفخ تحت القدر فيتصاعد الدخان من خلال لحيته الكثيفة ، وبعد أن ينضج الطعام يبرِّده لهم ، ويظل حتى يطمئن إلى أنهم قد شبعوا ، والمرأة تقول له : «جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين»[٤] .

وفي خلافة عمر يفتح عمرو بن العاص مصر ، ويتسابق فرس ابنه مع فرس صبي قبطي من مصر ، ويختلف الصَّبيَّان حول أي الفرسين سبق الآخر ، فيعتدي ابن عمرو على الصبي القبطي ويضربه بالسوط قائلا له : خذها وأنا ابن الأكرمين . فيشكو الأب إلى أمير المؤمنين في المدينة ، فيستدعي عمر الصبيين ويستدعي معهما عمرو بن العاص . ولما مثلوا بين يديه قال للصبي القبطي : دونك الدِّرة فاضرب ابن الأكرمين . فضربه حتى أثخنه (كما يقول

(١) العبقريات الإسلامية ، لعباس العقاد . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٤ ، مج١ : عبقرية عمر ، ص٤٨٤ .
(٢) سيرة عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي . القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٣٣١هـ ، ص١٣٥ .
(٣) فقد روي أنه رئي يطوف بالبيت وهو أمير المؤمنين وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة (الطبقات الكبرى ، مج٣ ، ص٣٢٨ ، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص١١٩- ١٢٠ .
(٤) سيرة عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي ، ص٥٩- ٦٠ .

أنس بن مالك راوى القصة) . فلما فرغ قال عمر للصبي : أجِلْها (أي : أدِرْها) على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بسلطان أبيه . فقال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت . واستحى الصبي وقال : يا أمير المؤمنين ضربت من ضربني . فقال له عمر : أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه . والتفت إلى عمرو مغضبًا وقال له قولته المشهورة : يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[١] .

ولما رأى عمر أن المغالاة في المهور جعلت الشباب يحجمون عن الزواج خطب في الناس يدعوهم إلى الاعتدال وألا يزيدوا المهور عن أربعمائة درهم ، فنهضت امرأة وقالت له : ما ذاك لك . قال : وَلِمَ ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢] فماذا كان رد فعل أمير المؤمنين عمر؟ لم يأمر باعتقالها أو إلقائها في غياهب السجون ، وإنما رجع عن رأيه بشجاعة نادرة وقال وهو على المنبر : أصابت امرأة وأخطأ عمر . كل إنسان أفقه من عمر[٣] .

وتأملوا مَنْ القائل؟ عمر بن الخطاب الخليفة العادل الزاهد الذي قال فيه النبي ﷺ «ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر»[٤] ، «ولو كان بعدي نبيّ لكان عمر»[٥] . عمر بن الخطاب الذي نزل القرآن مؤيدا رأيه في أكثر من موقف ، بل نزل بنصّ كلامه قرآنٌ يتلى ويتعبد به الناس إلى آخر الزمان . يقول عمر فيما يرويه عنه البخاري : «وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلىّ ، فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٦] . وقلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البَرُّ والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[٧] فنزلت هذه الآية[٨] .

(١) سيرة عمر بن الخطاب : لابن الجوزي ، ص٨٦- ٨٧ .
(٢) سورة النساء (٤) ، آية ٢٠ .
(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص١٢٩- ١٣٠ .
(٤) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب ١٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ ، ص١٥٤ .
(٦) سورة البقرة (٢) ، آية ١٢٥ .
(٧) سورة التحريم (٦٦) ، آية ٥ .
(٨) صحيح البخاري ، ص٧١ .

وهناك مواقف أخرى غير هذه المواقف الثلاثة نزل القرآن فيها برأي عمر . فلمَّا مات عبدالله بن أُبيّ همّ النبي ﷺ بالصلاة عليه ، فذكَّره عمر بكيد الرجل للإسلام والمسلمين وبقول الحق سبحانه ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾[١] فابتسم النبي ﷺ وقال : «لو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له زدت» ، وصلى عليه وشهد جنازته ودفنه ، فنزل قول الحق جلَّ وعلا ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ**﴾[٢] .

عمر ، هذا العبقري العملاق يردّ اعتبار صبي قبطي اعتدى عليه ابن واليه على مصر ، ويرده بطريقة عُمَرية لا يقوى عليها غيره ، ويتراجع عن رأيه على الملأ أمام امرأة من الرعية واجهته بحجة فلم يكابر فيها . فأية ديموقراطية هذه؟ إن أي ديموقراطية في الشرق أو في الغرب تنحني إجلالا لرجل كعُمَر ، وتستتر منه حياء وخجلا

ولست أدري لماذا يراودني في كثير من الأحيان شعور بأنه لو لم يوجد عمر في واقع الحياة ودنيا الناس ما صدَّق أحد أن الأرض منذ خلقها الله قد أقلَّت حاكما في عدل عمر وفي تواضعه .

فكيف تُتهم أمة هذا تراثها بالإرهاب؟ كيف تُتهم بالإرهاب أمة دينها الإسلام ، وتحية أهلها السلام ، وختام صلاتها السلام ، وقرآنها يدعو إلى السلام ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[٣] ، ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾[٤] ، ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾[٥] . وكيف يُقرن الإرهاب بالإسلام ، ورسوله أوصى قواد جيوشه بألا يقطعوا شجرة ولا يروِّعوا طفلا ولا امرأة ، ولا يتعرضوا بالأذى لأي عابد يتعبد في صومعته أياً كان دينه أو عقيدته . وهي وصية تناقلها الخلفاء الراشدون المهديون من بعده وألزموا بها قواد جيوشهم . فها هو أبو بكر الصديق يقول للمقاتلين المتوجهين للحرب : «لا تخونوا ولا تغلوا (أي : تحقدوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا (أي : تقطعوه من أصله)

(١) سورة التوبة (٩) ، آية ٨٠ .
(٢) سورة التوبة (٩) ، آية ٨٤ .
(٣) سورة البقرة (٢) ، آية ٢٠٨ .
(٤) سورة الأنفال (٨) ، آية ٦١ .
(٥) سورة النساء (٤) ، آية ٩٠ .

ولا تحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[١] .

فالمسلمون ليسوا دعاة حرب وإنما هم أنصار سلام ، يستجيبون لداعيه طالما أبدى أعداؤهم الرغبة في الأمن والأمان . وإذا كان نفر من المسلمين قد أساءوا الفهم أو التصرف ، فاللوم يقع عليهم لا على الإسلام . ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الأسوة الحسنة . ففي صلح الحديبية كان النبي ﷺ وصحبه يريدون العُمرة ، فتتصدى المشركون لمنعهم فقال النبي ﷺ لرسولهم : «إنا لم نجيء لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين» . وقَبِلَ النبي ﷺ أن يرجع وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، وإنما يدخلونها في العام القادم ويقيمون فيها ثلاثة أيام بعد أن تخرج منها قريش .

قد يقول قائل : إن الإسلام كان ضعيفا وإن الحكمة كانت تقتضي ما قَبِل به النبي ﷺ رغم اعتراض بعض صحابته على شروط الاتفاق وعلى الصيغة التي كُتب بها . ولكن ماذا يقول القائلون في عهد بيت المقدس الذي كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل إيليا ، وفيه «أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها ، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن . . ومَنْ أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلّى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم»[٢] .

هذا هو نص العقد الذي يحمي أهل إيليا ويصون مقدساتهم ويكفل لهم حرية العقيدة . أما الجزية فليست إتاوة تفرض على أهل الكتاب ، وإنما هي ضريبة الدفاع أو ضريبة الأمن القومي إن صح التعبير ، لأنهم مُعْفَون من الجندية وحمايتهم مسئولية الجيش الإسلامي .

وأثناء كتابة العهد في كنيسة بيت المقدس يحين وقت الصلاة فيخرج عمر من الكنيسة ويصلي في جوارها ، لأنه خشي لو أنه صلى فيها فقد يحرص المسلمون بعده على احتجاز المكان الذي صلى فيه .

---

(١) جمهرة خطب العرب ، جـ١ ، ص٧٤ (وتاريخ الطبري ، جـ٣ ، ص٢١٣) .

(٢) تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٢ ، جـ٣ ، ص٦٠٩

أَبَعد هذا كله يقول أي منصف : إن الإسلام دين عنف وإرهاب؟ أبعد هذا كله يقال : إن الإسلام يبث في نفوس أتباعه كراهية غير المسلمين والعداء لهم؟ أبعد كل هذا يقال : إن المجتمع الإسلامي مجتمع عدواني يقوم على العنصرية؟

إن قِلَّة علمنا بتراثنا ، وعجزنا عن التعريف به تعريفا صحيحا هو الذي يتيح لأصوات أعدائنا أن تعلو ، ويتيح لتُهمهم الباطلة الجائرة أن تجد لها آذانا صاغية . ولهذا أقول : إن أزمتنا الحالية أزمة جهل قبل أن تكون أزمة ضعف ، وإن المعرفة الصحيحة بتراثنا هي التي يمكن أن تجمع شملنا وتقرِّب بعيدنا وتصون وحدتنا . فهذا التراث هو الذي يشكل عقل الأمة ووجدانها ، ولا تكفي المعرفة به وحدها ، وإنما لابد من إحيائه وتفعيله والتمسك به ، بل لابد من التعريف بما يحمله من مباديء سامية ومُثل عليا وقيم رفيعة ، تجمع ولا تفرِّق ، تبني ولا تهدم ، تصون ولا تبدِّد ، تنشر الحب والإخاء بين البشرية كلها ، وتحفظ الدماء والأموال والأعراض ، وتحرر الإنسان من الخضوع لغير الله ، وتطلق طاقاته الكامنة لعمارة الكون وإثراء الحياة .